المحاضرة الثانية أما دينة «تلمسان»، فقد عوضت «تيهرت»، وصارت «قاعدة المغرب الأوسط» و«قفل بلاد المغرب، وهي على رصيف للداخل والخارج منها، لا بد منها، والاجتياز بها، على كلّ حالة...» ومثّلت حلقة وصلٍ تجاريةٍ مهمّةٍ بين مختلف أصقاع المغرب والمشرق من جهة، وبين السودان والأندلس، ثمّ الشمال الأوروبي عبر مينائيها:  (أرشقول، وهنين) من جهةٍ ثانية.

وصارت بذلك «مقصداً لتجار الآفاق» وكان معظم تجارها يتعاملون مع السودان ومنها «تخرج القوافل إلى سجلماسة وورقلة، وهما بابا السودان» , وقد بلغت حظوتها من التجارة الصحراوية إلى أن صرّح السلطان الزياني: أبو حمو موسى الأول: «لولا الشناعة لم أنزل في بلادي تاجراً من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع، ويأتون بالتبر الذي كلّ أمر الدنيا له تبع» .

ومن دلائل ازدهار التجارة الصحراوية مع تلمسان ظهور «شركة آل المقري» التجارية، التي أسّسها خمسة إخوة، هم:  (أبو بكر ومحمد بتلمسان، وعبد ارحمن بسجلماسة، وعبد الواحد وعلي بولاتة، كانوا يتبادلون المراسلات والتقارير حول الأموال والسلع والأسعار «فكان التلمساني يبعث إلى الصحراويّ بما يرسم له من السلع، ذاك يرسل له بالجلد والعاج والجوز والتبر، والسجلماسيّ بينهما كلسان الميزان يعرّفهما بقدر الرجحان والخسران، ويكاتبهما بأحوال التجار والبلدان، فاتسعت أموالهم، وعظم شأنهم»

كما كانت «ورقلة» منفذاً مهمّاً في التجارة الصحراوية منذ العصر الرستمي ؛ إذ شكّلت المركز الأول لتجارتهم واكتست طابع: «بوابة السودان» بوصفها «المعبر الضروريّ الذي تمرّ منه القوافل الحاملة للذهب والعبيد إلى التل القسنطيني» وبها كانت «القوافل المسافرة شمالاً تفرّغ سلعها، وتلك المتجهة جنوباً تتجمع قبل الرحيل»

كما كان «سكانها أغنياء جدّاً؛ لأنهم في اتصالٍ مع مملكة أكدز، منهم عددٌ كبيرٌ من التجار الأجانب الغرباء عن البلد، لا سيما من قسنطينة وتونس، يحملون إلى وركلة منتجات بلاد البربر، ويستبدلونها بما يأتي به التجار من بلاد السودان» كما اكتسب أهلها خبرة واسعة في المسالك الصحراوية، وكان منهم أدلاء لتلك الطرق وكان لهم دَوْرٌ رياديٌّ في قيادة القوافل التجارية مع غانة.

وشكّت مدن «الزاب»: مراكز تجارية على «خط التجارة الداخلة والخارجة من بلاد السودان؛ الشيء الذي ربط تجارها مع تجار السودان برباط وثيق» ومنها: بسكرة والبرج وطولقة والدوسن ثمّ نفطة التي كان سكانها من «كبار الأغنياء لوجودهم... على الطريق المؤدية إلى بلاد السودان» .

أما «بادس»: فكانت آخر مدن الزاب شرقاً، وبالقرب منها كانت «تفترق الطرق إلى بلاد السودان، وإلى القيروان، وإلى بلاد الجريد وطرابلس وغيرها... فيها تجتمع الرفاق، ومنها تخرج إلى جميع البلاد»

كم كان هناك «المسيلة» في العصر الحمادي، وهي تقع على طريق القوافل الواردة والصادرة، من وإلى المشرق والمغرب الأقصى والصحراء وارتبطت بتجارة السودان عبر الطريق القادم من ورقلة

وبدورها كانت «توات»: «ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان» وصارت «ملتقى طرق... لعددٍ كبيرٍ من القوافل التجارية القادمة من الشمال الإفريقي، والمنطلقة نحو السودان الغربي» , وصارت خلال فترة حكم الصنغي في أهمّ طريق للتجارة الصحراوية المنطلق من تنبكت نحو تغازة، فتوات، ثم سجلماسة والمغرب الأوسط كما كانت تنبكت تغصّ بالتجار التواتيين

وكانت مدينة «الجزائر» من بين المستودعات الكبرى التي توجّه جزءاً من البضائع السودانية نحو أوروبا وكان تجار الجزائر وبجاية يلتقون تجار السودان ببلاد مزاب

هذه العلاقات الاقتصادية انبنت على عنصر التكامل بين طرفَي المبادلات؛ بحكم التباين في المؤهلات الطبيعية والاقتصادية للطرفَيْن، وتميّزت بنية المبادلات بهيمنة المواد المصنّعة تصديراً من مدن المغرب الأوسط. وكان «القماش التلمساني»- مثلاً- يصل إلى السودان ويلبسه سلاطينها وأغنياؤها كما كانت تلمسان تصدّر صناعة الخردوات  (المناجل، وسكك المحاريث، والأدوات المنزلية؛ من سكاكين وقدور وغيرها) والأسلحة، والمصنوعات الزجاجية، والعطور، والقرنفل، والبخور، والتمور، وبعض المنتجات الزراعية , وكان يصلها من السودان: الرقيق، والذهب، والملح، والنحاس، وريش النعام، وبعض البهارات , والجلد، والعاج، والجوز...

ومن دون شك؛ كانت تمور بلاد الزاب وورقلة تجد طريقها إلى السودان، كما كانت بعض الأحجار الكريمة بصحراء ورقلة تصل إلى السودان، ويتنافس أهله في اقتنائها بأبهظ الأثمان

وعموماً: فقد تنوعت وتوطدت الروابط التجارية التي جمعت مدن المغرب الأوسط بالمدن السودانية على مرّ العصور.

**3 – دينيّاً:**

تعدّ الدوافع الدينية محرّكاً رئيساً في مختلف التطورات الحاصلة في علاقة المغرب الأوسط بالسودان الغربي.

وقد بدأ الدين الإسلاميّ في الانتشار بالمدن السودانية بشكلٍ خاص وكان للتجار الرستميّين دَوْرٌ بارزٌ في هذا الصدد , خصوصاً بالأجزاء الوسطى: بلاد الكانم , وربما يكون بعض ملوكها قد اعتنق الإسلام على أيديهم .

هذا التأثير الدينيّ ساهمت فيه كلّ الطوائف التي كانت على صلةٍ دائمةٍ بسكان المنطقة، من علماء وتجار ودعاة، بحواضر المغرب الأوسط، ونستحضر هنا بالخصوص التجربة البارزة للمغيليّ الذي قام بدَوْرٍ كبيرٍ في نشر الإسلام في صفوف أهل السودان، خصوصاً في حاضرتَي: «كانو» و «كاتسنا»

**4 – العلاقات السياسيّة:**

برغم أنّ المعطيات المصدرية لا تسعفنا في تقصّي التأثير السياسيّ بشكلٍ مفصّل، وبرغم أنّ الدلائل على العلاقات السياسية بين المغرب الأوسط والسودان نادرة؛ فإنها مع ذلك غير منعدمة.

ولعلّ أقدم إشارة في هذا الباب ترجع إلى العصر الرستمي؛ إذ «أرسل أفلح بن عبد الوهاب  (208 - 258هـ / 823 - 872م) ثالث الأئمة الرستميّين: سفارةً تحمل هدية إلى أحد ملوك السودان، وكان الذي تقدّم هذه السفارة إلى الملك السوداني: محمد بن عرفة؛ أحد الوجوه البارزة في البلاط الرستمي»

وقد تلقّى بنو زيري بدَوْرهم بعض الهدايا من بلاد السودان، منها واحدة حوالي  (382هـ / 992م)، وأخرى سنة  (423هـ / 1032م)

وارتبطت إمارة كانم السودانية بعلاقاتٍ وثيقةٍ بالحفصيين . الذين كانوا يبسطون نفوذهم على شطرٍ مهمٍّ من المغرب الأوسط آنذاك، وتبادل الطرفان السفارات والهدايا .

وقد ربطت صداقةٌ وثيقةٌ بين منسى موسى سلطان مالي، وهلال القطلاني حاجب عبد الرحمان أبو تاشفين الزياني

وذكر ابن خلدون أنّ إمارة صنهاجية بطرف الصحراء اتخذت من «تكرت» مقرّاً لها، كان بينها و «بين أمير الزاب وواركلا مهاداة ومراسلة»

وعلى مستوى آخر؛ نستشف تلك الأدوار السياسية من المهمّة التي اضطلع بها المغيليّ  (ت912هـ) في أوساط الإمارات السودانية، والتي وصلت إلى حدّ تعبئة الجيوش للجهاد، وتوسيع الفتوحات؛ حيث تمكن من الحصول على منصب مستشارٍ في بلاط أسكيا محمد، أحد ملوك إمبراطورية صنغي .